مقـدمـة

الصحراء بحر الرمال الوهاجـة بعبـع الحضـري المخيـف وعـالم بـلا عـودة للجاهل في فهم أسرارها وكشف ألغازها.

الصحـراء تكـاد تكـون بالنسـبة للحضـري مرادفـة للمـوت والفنـاء. يلفهـا الغموض وتذروها الرياح، يشح ماؤها وتموت نباتاتهـا، وتتوهـج لظى فـي أشـهر الصيف، وتغوص بركاً في فصل الشتاء. يستوي برد ليلها الصيفي مـع بـرد نهارهـا الشتوي.

أما مَنْ عَبَرها مرة فأخذ عنها بعض أسرارها فإن للصحراء عنده معنى آخـر. إنها الحرية بذاتها، إنها سكونه الأبديّ وآفـاق الإنسـان الواسـعة اللامتناهيـة، إنهـا السحر بعينه، إنها الصفاء والحب والقوة بكل ما في هذه الكلمات من معانٍ. إنهـا المدرسة الكبيرة والجهاد الأكبر. ففي كل ساعة فيها اختبار لقدرة الإنسان وجلده وسرعة بديهته وقياس لمقدرته على التكيف مع الحياة بشتى صنوفها وأطوارها.

والبدوي ابن الصحراء يعيش فيها على فطرتـه «بجلـد وصـبر يتحمـل الحـر والقر والجوع والظمأ والتعب والراحة والعمل والبطالة وكثرة المشي أو قلته بنفس واحدة دون تبرم أو عجز».

وعلى الرغم من قساوة الصحراء فإن لها سحراً لا يعرفه إلا من عاش فيها. هذا السحر يدفع صاحبه بهوى مجنون إلى العودة للصحراء للتمتع بسحرها وجمالها وصفائها.

ومعرفتنا نحن سكان الحضر بالبدوي معرفة سطحية تبدو كأحلام أو كوابيس بعيدة تخفي من أعيننا عالماً قائماً بذاته بكل أبعاده ومضامينه ومفاهيمه؛ مع أن أصل نوعنا العربي السامي بدوي انطلق من شبه الجزيرة في موجات هجرة متلاحقة لا تنقطع مادام هناك فجر يسطع وقمر يغيب في إطار وشكل واحد مستمر ومتصل. يبدأ في غياهب الصحراء، يدفعه لهيبها نحو الماء والخضرة، فيقترب منها ليذوق طعم راحة وبحبوحة العيش، فيبقى لا يفارق الخضرة والماء، ثم يدخل المرحلة الأخيرة ليستقر في ضاحية حضر مستعداً للاندماج في حياة الحضر.

لذلك قسم البدو إلى ثلاثة أقسام: الأول: هم العشائر الجمالة أهل الإبل ذوو النجعه البعيدة التي قد تستمر ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كم، فيتخذون بيوت الشعر ينتقلون ما بين الصحراء العربية وبادية الشام حتى الفرات جنوباً وشرقاً وغرباً عبر السعودية والأردن وسوريا والعراق. والقسم الثاني العشائر الغنامة أو «نصف الرُّحَّل» فنجعتهم محدودة تناسب قدرة أغنامهم. وقد يمتلكون الأرض ليزرعوها. وماشيتهم إما لهم وحدهم أو لأهل المدن المجاورة يشاركونهم في تربيتها.

والقسم الثالث: هم العشائر المتحضرة أو أهل الدور وهم الأعراب الفلاحون «الفلاليح» الذين صاروا أهل قرى وبيوت، وعكفوا على الحرث والزرع. والبدوي عموماً يحب الغزو لأنه الطريق الأسرع للثروة، ولأنه ميزان الفروسية وإثبات القدرة والحيوية. فالغزو عند البدوي لا يعني ما يعنيه عند أهل الحضر من نهب وسرقة. إنما يعني بالنسبة له إثبات وجود واستعراض قوى[1].

واقتصاد البدوي يعتمد على الإبل، فهي نقوده ومهره وحله وترحاله، يستفيد منها في الانتقال والحمل، ويستفيد من لحمها ووبرها ولبنها وروثها. وهو

(١) لطفاً راجع مقالاً لأحمد وصفي زكريا في المقتطف عام ١٩٥٠ ص ١٤٧ وما بعدها.

بنفس الوقت يسعى ويشقى في سبيلها؛ لذلك فإنَّ أول ما ينشده الماء والخضرة. وبسبب الماء والخضرة يتم الانتجاع والغزو والاقتتال، وتوزيع مناطق الصحراء بين العشائر، وتنظيم الارتحال بما يناسب فصول السنة ومقدار المياه وتوزع الآبار التي تنتشر في الصحراء، بدءاً من فجر التاريخ حتى العصر الروماني فالإسلامي فالعثماني فالعربي[٢].

ونتيجة ذلك يقوم البدو بالمقايضة والمتاجرة مع سكان الأرياف والمدن ضمن عادات وشروط معينة. فبعض العشائر اعتادت أن يزورها التاجر لمناطق محددة في أوقات محددة. وبعضها «وعلى الأخص نصف الرُّحَّل» ترد المناطق الحضرية لتبيع الحليب والأغنام والمنتجات. فعلى عاتق الرجل بيع الأغنام، وعلى عاتق المرأة البدوية بيع الحليب والبيض والدجاج، ولايجوز العكس في عرف البدوي.

وهناك مصادر أخرى لرجل البدو هو الغزو كما قلنا. كذلك للبدو ـ وحسب المناطق ـ أخذ الخوة سواء من العشائر البدوية الأضعف أو من القرى والمزارع المجاورة. وللبدو حسب المناطق ـ أيضاً ـ وحسب قوة العشيرة ـ الحق في قبض العمرة وذلك من قوافل الحجاج، لتسهيل وصول الحجاج والحفاظ على سلامتهم وممتلكاتهم، ولدلالتهم على الطريق ومصادر المياه. ولكن إذا لم يتم دفع العمرة فإن مصير القافلة النهب والسلب والقتل. وقد نقل إلينا المؤرخون والرحالة والحجاج الكثير من الحوادث المشابهة، لعل أكبرها ما وصفه لنا فولين في رحلته إلى سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر.

وفي حالة فقد الماء والعشب في السنوات العجاف فإن البدوي يتحول إلى غاز على المدن والأرياف وعلى القوافل. وفي أوائل القرن العشرين أخذ يهاجم خطوط السكك الحديدية ومحطات النفط التي بنت منشآتها كحصون قوية لها أبواب وأبراج حديدية.

---

(٢) لطفاً راجع البادية لعبد الجبار الراوي ص ٥٦ وما بعدها.

وسكان البادية في شرقنا العربي في السعودية والأردن وسوريا والعراق يشكلون نسبة عالية لابأس بها من عدد السكان، مع أنه لم يجر قط تعداد لهم. ولسكان البادية منذ أقدم العصور وحتى وقتنا الحاضر تأثير في الحياة السياسية لمنطقتنا، ولروابطهم العشائرية أيضاً دور كبير، لذلك نجد السلطات تتسابق لكسب ودهم منذ أقدم العصور وحتى العصور الإسلامية (الأمويين والعباسيين)، ثم المماليك والأتراك، وحتى الإنكليز والألمان والفرنسيين. وكان من ذلك أن أصدرت سلطات الاحتلال في كل من سورية والعراق والأردن قوانين خاصة بالبدو أغدقت فيها ميزات وأحكاماً خاصة بهم وتسابقت في كسب ودهم.

ويأتي كتابنا هذا «الخيام السود» سلسلة من هذا التسابق. فالكتاب يصف زيارة قام بها ضابط ألماني قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها ليكسب ود أكبر عشائر المنطقة العربية ألا وهي عشيرة الرولا بعد أن سبقت زيارته زيارة لأحد الشخصيات الألمانية التي أخفقت في كسب ودهم. إلا أن زيارة مؤلف هذا الكتاب لم تسفر عن نتيجة فقد سبقه إليها وإلى كسب ودها لورنس الإنكليزي، وحاربت الرولا معه، وكان لها فتح شرقي الأردن وسوريا ودخول دمشق.

والرولا التي أخذت اسماً من الروال، وهو لغةً: اللعاب. والمرول الرجل الكثير اللعاب. ولعل أساس الكلمة أنهم قوم مرولون[1].

والروله من عشيرة عنزة بن وائل من خنأ مسلم ومن بطن الجلاس. وهم أكبر عشائر عنزه عدداً وأعظمها قوة، وهي من البدو الرحل أصحاب الأباعر. وهي من أكبر العشائر نفوذاً في شرقنا العربي بسبب قوتها وكثرة رجالها وتأثيرها في الحياة السياسية، ومناصرتها للورنس الإنكليزي، ومحاربتها للأتراك. وقد تقوت أكثر أيضاً بمصاهرتها لآل سعود، تلك المصاهرة التي تمت بين آل سعود وآل السقلان الذين استلموا مشيخة الرولا لأكثر من مائة عام بعد أن أخذوها عن شيخها السابق الدريعي.

---

(١) ومن معانيها روّلَ الخبزة ترويلاً: آدمها بالإهالَةِ، أو دلكها بالسّمن أو أكثر دسمها. وهو أقرب إلى الأصل في التسمية.

وقد اختلف الباحثون في تقدير عددها، فمنهم من يقول خمسة آلاف بيت ومئة ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومئة فرس، ومنهم من يقول أكثر أو أقل، وقد قدر مؤلف هذا الكتاب أن عدد الأبعرة في مسيرة العشيرة نحو الشمال كانت تضم ستمئة ألف بعير.

وقد استلم مشيخة القبيلة بعد الدريعي المشهور فيصل الشعلان ثم هزاع بن نايف الشعلان. ثم سلطان بن أحمد بن منيف الشعلان ثم خلفه فهد ابن هزاع الشعلان. ثم نوري الشعلان، وهو أقوى شخصيات الرولا وأكثر مشايخهم قوة وجبروتاً وطول مقام (٥٠ عاماً) ثم خلفه فواز حفيده.

والرولة ينزلون في نجد والشام حول بئر القمة وعين الحياة والنركلس حسية الجولان، وغوطة دمشق، ومنطقة الخيرات في الحماد، والقريتين من محافظة حمص، ودرعا والزوية. ويقضون الشتاء في منحدرات الشرق والجنوب من جبل عنزة حتى جوار الجوف[1].

وينقسم الرولة إلى بطون والبطون إلى أفخاذ والأفخاذ إلى فصائل، والفصيلة إلى بيوت.

وقد كان مقام نوري الشعلان في دمشق في الصالحية، لذلك أطلق على الحي الذي فيه منزلة اسم حي الشعلان ومنزله لازال قائماً وفيه أحفاده.

والكتاب يقدم لنا وثيقة مهمة عن حياة الصحراء وعن نمط عيش البدوي وطريقة عيشه وما يهمه وما يغمه، وما يفرحه وما يحزنه. والكتاب بالاختصار يقدم لنا الكثير مما نجهله عن صحرائنا وإخواننا في البادية.

* * *

(١) راجع معجم قبائل العرب مادة الرولة.

بين يدي الكتاب

ينقل هذا الكتاب الرومانتيكي الغريب القراء من تعقيدات الحضارة الحديثة إلى الحياة الهادئة والخطيرة في الصحراء العربية وسكانها البدو.

كارل رضوان أحد الرجال القلائل الذين اخترقوا الصحراء المجهولة في شمال الجزيرة العربية، وعاش مع البدو والمحاربين، ليس كغريب عنهم بل كفرد متميز بأخوة الدم مع شيوخهم. واشترك في هجرة أكثر من ثلاثين ألف شخص ومئات الخيام وآلاف الجمال بحثاً عن الماء والرعي. كما اشترك في معاناة الصراع الأبدي ضد الجوع والجفاف. وقد تكشف له من خلال ذلك المغامرة والحب والصداقة والشجاعة في الحياة البدوية.

وقد وصفت مجلة «السباكتاتير» كتاب (الخيام السود في الجزيرة العربية) بأنه أصيل وممتع، بينما وصفته صحيفة «التايمز» بأنه «مستنير وحسن الصياغة وتثقيفي». وكتب السيد ر. ب. كننغهام غراهام في صحيفة «الأبزيرفر» قائلاً «إنه يصور أمامك الحياة العربية الكاملة ووجهة النظر العربية بوضوح ما نراه في لمعان البرق».

إلى فارس ـ صديقي المخلص

عليك عهد الله وأمان الله

ليرقد بسلام

نم يا سليل الحرب المقدام لا تكترث لهياج
الرمال المتنقلة التي تتلاطم حول مرقدك
استرح أيها المحارب السعيد وانس بأمان
تلك الضربة التي لم تستطع إحناء رأسك الشجاع
لأن ـ في حياتك ـ في روحك وفي وجهك
بدا أن هدوءاً سكن حكمتنا.
وترعرت الفضائل المحمودة كما لو أنها تبجل
فيك ذرية إسماعيل المغبون.
ولكن لو تناثرت أزهار الذكرى
في مروج علياء جنتك
تذكرها تلك المرأة المشرقة كندى الصباح
التي مسحت عينيك بكمال حبها
إن تويما الشجاعة البراقة العينين
لاتزال تنتظر عند البوابات الذهبية للانضمام إلى عريسها

غومو وليامز

تقديم

خلال السنوات الاثنتين والعشرين من اختلاطي بالبدو في الجزيرة العربية ـــ في الترحال والصيد والفروسية والجوع والولائم ـ أقمت صداقات رائعة. وإنني ممتنّ للكثير من أصدقاء الصحراء.

إلى «أمير أرض أجداده» ملك الجزيرة العربية عبد العزيز بن سعود الوهاب وأمرائه ورؤساء نجد والحسا والجوف والكف وممثلين في دمشق والقاهرة ولندن.

إلى الأمير نوري الشعلان وعائلته وقبيلة الرولة للفرص الفريدة التي مكنتني من اكتساب المعرفة الدقيقة بالتقاليد العربية والعادات البدوية، والتجوال في المنطقة المجهولة حتى تفهمت روح بلادهم الغامضة، وفكر سكان خيام إسماعيل السود، وهي الفرصة التي مكنتني من جمع المواد التي أنتجت هذا الكتاب.

إنني أشعر بالكثير من الامتنان للفكرة التي اندلعت في قلبي من أعمال ومُثُل المرحومة الليدي آن بلنت التي ساعدتني في متابعة بحثي عن الحصان العربي الأصيل. وللسيد و. ك. كيللوغ الذي كرّس مراعيه ومزرعة الخيول في كاليفورنيا لطلاب تربية الحيوانات وهبة كافية لتأمين تربية الخيول العربية الأصيلة.

إلى تشارلز دوثي وهو رحّالة إنجلترا الكلاسيكي في «جزيرة العرب». إنني مدين له بأني ـ من أول أيامي في التيه ـ نظرت «بروح رقيقة» و«قلب رحيم» إلى «الصحراء القاسية» و«عداوات البدو المتعصبة»، وخرجت بالرضا الكامل لأنني عشت بطمأنينة تحت خيام بني إسماعيل.

إنني مدين جداً «للشيخ موسى الرولي» و(البروفسور أ. موسيل من براغ) لأن منشوراته تحت رعاية الجمعية الجغرافية الأمريكية في نيويورك مكنتني من الاهتمام الذكي الجديد برحلاتي في الجزيرة العربية، وخصوصاً بين قبيلة الرولة التي نعمنا بعشرتها (على الرغم من أننا لم نلتق أبداً) كأفراد في عائلة الشيخ وقبيلته.

كما أنني مدين إلى «الكولونيل لورنس العرب» لأنه كان رفيقي الدائم عبر صفحات كتابه خلال رحلاتي الثماني الأخيرة، وقد حصّن روحي بمثال مثابرته الفريد ليحملني عبر ظروف الصحراء القاسية. لقد قابلت كثيراً من رفاقه وأعدائه الذين ـ سواء من أحبّوه أم من خافوه ـ اتفقوا على أن «لورانس» كان أخلص صديق أتى من أوربا ليدافع عن القضية العربية على الرغم من أن معظمهم أسف لأنه لم يتسن له الوقت ليحالف ابن سعود.

وعلي أيضاً أن أعبّر عن شكري الخالص للسيد غومر وليامز للمساعدة القيمة التي قدّمها لي في تحضير هذا الكتاب، ولقصيدته المؤثرة التي تشكل مقدمة مناسبة لهذه القصة.

وشكري الخالص أخيراً إلى السيد يرايد ـ هيوز الذي قدمني إلى الصحافة الإنجليزية وإلى شركة إليفورد المحدودة لإخراجها الرائع لصوري البدوية، التي عرضت مؤخراً وبنجاح في صالاتها هاي هولبورن في لندن، وهو المعرض الذي تفضل بافتتاحه السيد رولاند ستور الحاكم العسكري في القدس مؤخراً.

وهناك آخرون أرى نفسي مديناً لهم، لأن أصدقائي الكثيرين في الجزيرة العربية وفي العالم الغربي أظهروا تعاطفهم وقدموا معوناتهم.

* * *

مقدمة المؤلف

إن رغبتي في هذا الكتاب هي معالجة الأشياء التي تهم الإنسان بدلاً من القضايا العلمية. وإن قصتي هذه حيكت من نسيج مغامراتي وخبراتي مع الناس والحيوان في البرية.

إن روحي متعلقة بهذه الصحراء العربية الرومانتيكية. فهدوء الصحراء العربية وسكونها يستعبدني ـ تلك السكينة التي خيّمت فوق العالم في آخر أيام الخليقة. في الصحراء أتنفس بحرية وتذهب عني أعباء الحياة المتحضرة المتراكمة كحمل ثقيل ينزاح عن كاهلي. وحتى الآن أندهش حين أفكر بقلة ما يحتاج إليه الإنسان ليكون سعيداً، وكم يكون الإنسان حرّاً عندما يقتصر على ضرورات الحياة.

فرحلاتي إلى الصحراء وإقامتي بين العرب لم يكن دافعها المطامح العلمية، بل إن الحصان العربي هو حجر المغناطيس. «فالبقع البيضاء» على الخارطة لم تجذبني كثيراً على الرغم من أنني عشت معظم حياتي في المناطق المجهولة تماماً أو التي لم يزرها الأوربيون إلا نادراً. ولم يكن نداء المغامرات التي قاد خطاي إلى الأجزاء الأكثر فقراً من الشرق الأدنى، ولكنه حب الخيول، وخصوصاً الحصان العربي الرائع. لقد كان ولايزال هيامي جارفاً بهذا الحيوان النبيل، مما جعلني أتمنى ملاقاته في مراعيه الأصلية، وأن أتعلم هناك تاريخه وأسرار توليده، ولو كان هناك أي اهتمام ثانوي فهو الاطلاع على تحركات القبائل البدوية. وقد تزايد هذا الافتتان كلما توغلت حتى إنني درست الخصائص الجغرافية لمناطق المراعي

وطرق الترحال وماضيها التاريخي وخصائصها الإنثوغرافية ـ وهي مواضيع نشرت فيها في أقطار مختلفة المقالات والخرائط والجداول الخاصة.

الجزيرة العربية هائلة بشكل يفوق التصور. فمساحتها تبلغ نصف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. ورحلاتي بالطبع امتدت فوق جزء منها وهو النجد المرتفع في الوسط الذي يسكنه البدو.

وعلى الرغم من أنني لامست البحر الأحمر والخليج العربي أكثر من مرة، فإنني لم أزر المناطق المعروفة مثل عدن وعمان، ناهيك عن مكة والربع الخالي الذي اخترقه لأول مرة شخصان إنكليزيان (برترام توماس وسانت جون فيلبي) قبل سنوات قليلة فقط. ولكنني أدّعي شيئاً واحداً وهو أنني ـ خلال إقامتي في الجزيرة العربية ـ عشت كلياً كبدوي. لم أكن أبداً بحاجة إلى إنكار جنسي أو معتقدي بين العرب. ولم أكن ولو لمرة واحدة موضع سخريتهم أو احتقارهم، كما أنني لم أواجه منهم أية فظاظة.

والسبب الذي جعلني أعيش بينهم بعلاقات وثيقة وأكون موضع ثقتهم الضمنية يمكن أن يجد تفسيره في أنني أحجمت عن التدخل في شؤونهم السياسية إلا عندما يطلب مني إبداء الرأي في الأمور القبلية الداخلية. والأكثر من ذلك أنني حرصت على الالتزام بكل عاداتهم وأهوائهم وخصوصاً ما يتعلق منها بالنساء. إنها صارمة ولا يستطيع أي أوربي أن يأمل في كسب ثقة البدوي الكاملة ما لم يتقيد بها تماماً.

والبدو ـ كالصحراء نفسها ـ أصحاب مظاهر بغيضة عند النظر إليهم من الخارج، ولكن كلما اقترب المرء منهم تحسّنت معرفته بهم وازدادت دهشته لراحة بالهم الهادئة.

والشيء المدهش ـ الذي لم ينل إعجابي ـ هو الاتزان الذي يقود به البدوي عائلته وقطعانه من الواحات والأراضي المزروعة إلى البرية وعبر المناطق الصحراوية التي تبدو قاحلة تماماً. والسحابة الأولى التي تبشر بهطول المطر تغريه تلقائياً إلى مرتفعات الحماد والصحراء الصوانية، أو إلى جبال النفوذ الرملية. وبعد

الأمطار يغادر غزاة القطعان الفرسان خيامهم. إنهم يخرجون إلى المجهول وخيولهم الحربية مربوطة بجمالهم السريعة. وغالباً ما يقطعون مسافة ألف ميل «ويقفون على الطرقات (كما يقول الكتاب المقدس) وينتظرون الغنائم كعربي في الصحراء...».

ولذلك فإن هدفي في هذا الكتاب هو أن أروي قصة هؤلاء الرعاة الرحل والغزاة والفرسان وأن أتحدث عن خبراتي بينهم.

عمان ـ الأردن

رضوان الرولي

* * *